ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الفاطميون ومشروع غزو الأندلس
صراع خلافتين إسلاميتين في غرب البحر المتوسط خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش
أستاذ التاريخ الوسيط الإسلامي
Moulay Ismail University of Meknes
جامعة مولاي إسماعيل - مكناس – المغرب

مُلَخّص

يتابع هذا البحث قضية مفصلية في تاريخ الغرب الإسلامي خلال القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، وهي تصادم خلافتين إسلاميتين في البحر المتوسط الغربي، وهما الخلافة الفاطمية الشيعية، والخلافة السنية الأموية في الأندلس. ويُعَدّ هذا الحدث أول نزاع مسلّح مباشر في التاريخ الإسلامي بين خلافتين إسلاميتين متزامنتين، وأول محاولة شيعية لغزو الأندلس، حاولنا قراءتها بمنهج تحليلي يعتمد على عرض مختلف الرؤى والمقاربات، وترجيح ما نراه المقاربة الأكثر قدرة على التفسير. وقد تمّ تقسيم البحث إلى محورين أساسيين: ركّز الأول على فحص أبعاد الصراع الفاطمي – الأموي حول منطقة غرب البحر المتوسط، وتفسيره من خلال ثلاث مقاربات: التفسير العرقي، التفسير المذهبي ثم التفسير الاقتصادي، ورجحنا التفسير الاقتصادي، نظرًا للبعد الذي أخذه حجم الصراع بين الخلافتين من أجل السيطرة على الموانئ المتوسطية، والهيمنة على شرايين الملاحة المتوسطية. وفي المحور الثاني، جرى تحليل محاولة الفاطميين غزو الأندلس وتصدي الأمويين لهم من خلال إبراز الأساليب التي استعملتها القوتان المتنافستان لكسب المواقع الحساسة في البحر المتوسط من قبيل عمليات التجسس المتبادل، وتأييد الحركات المعارضة في الداخل لإضعاف الخصم، واستمالة شيوخ القبائل وإثارة البلبلة، والحرب بالوكالة، وتشكيل جبهات للتحالف مع ملوك الدول المسيحية والإسلامية المعادية للنظامين، فضلاً عن رفع وتيرة السباق للتسلح بتقوية الأساطيل واحتلال الموانئ المتقدمة. وقد تبين أن التصادم المسلح بين القوتين الإسلاميتين كان أمرًا حتميًا بسب تلك المعطيات، وانتهى بفشل المشروع الفاطمي في غزو الأندلس بفضل التفوق العسكري الأندلسي الأموي، وإحباطه جل محاولات الفاطميين كسب تأييد الزعامات المحلية، ليبقى المجال المتوسطي الغربي مجالاً سنيًا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ مايو ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ يوليو ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الحرب الروحية؛ القوة البحرية؛ الموانئ المغربية؛ الحكومة الفاطمية؛ شيوخ القبائل

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055856

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إبراهيم القادري بوتشيش . "الفاطميون ومشروع غزو الأندلس: صراع خلافتين إسلاميتين في غرب البحر المتوسط خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص١٨٥ – ١٩٤.

مُقدِّمَةُ

منذ ظهور الفاطميين في الغرب الإسلامي في أواخر القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، عرف غرب البحر المتوسط تحولاً عميقًا. فبعد أن كان مجالا جغرافيا تابعا للخلافة الإسلامية بالمشرق، شهد مع حلول الفاطميين بالمغرب ميلاد خلافتين إسلاميتين متنافستين: أولاهما شيعية إسماعيلية وهي الخلافة الفاطمية، وثانيهما خلافة سنية مالكية وهي الخلافة الأموية بالأندلس، مما جعل منطقة غرب البحر المتوسط تتحول مع ميلاد هاتين الخلافتين إلى مركز لصراع النفوذ بين قوتين بحريتين إسلاميتين طيلة القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي). وقد جاء هذا الصراع بين الفاطميين وأمويي الأندلس كحدث متميز،

لأنه يشكل أول نزاع مسلح في التاريخ الإسلامي بين خلافتين إسلاميتين متزامنتين، وهو صراع تجسد إما في شكل حرب مباشرة، أو في شكل تجسس ودعاية وتحريض ضد الخصم، أو جاء في صيغة حرب بالوكالة عن طريق استعمال قوى محلية من القبائل المغربية لحسم الحرب لأحد الطرفين. لذلك ستركز هذه الدراسة على تحليل أبعاد الصراع الفاطمي – الأموي حول غرب البحر المتوسط، وأشكاله التي تراوحت بين التجسس والدعاية، والحرب بالوكالة، وسباق التسلح في كافة الموانئ المتوسطية، قبل الدخول في حرب مباشرة، مع ذكر نتائج هذا الصراع.

أولاً: أبعاد الصراع الفاطمي – الأموي حول منطقة غرب البحر المتوسط

لتفسير أبعاد الصراع الفاطمي – الأموي حول الأندلس، يجد الباحث نفسه أمام ثلاث أطروحات:

أطروحة التفسير العرقي، وهي التي يتبنى أصحابها[١] مقولة العرق أو الانتساب القبلي لتحليل الصراع الفاطمي-الأموي؛ فقد سعى أصحاب هذه المقولة إلى تبرير ذلك الصراع بالعداء القديم الذي كان متجذرا في العصر الجاهلي وبعده، بين بني هاشم وبني أمية، باعتبار أن الفاطميين كانوا من أشد الدعاة لحصر الخلافة في آل البيت المنتمين للعترة الهاشمية، لذلك لم يتوانوا عن إعلان معارضتهم للحكم الأموي الذي اعتبروه متجنيًا ومغتصبًا للخلافة. بينما كان أمويو الأندلس ينتمون للشجرة الأموية، ويمثلون حلقة إضافية في سلسلة الحكم الأموي الذي ساد في العالم الإسلامي ردحًا من الزمن. فالخلافة الفاطمية من وجهة نظر أصحاب هذه الأطروحة هي تجديد لأحقية بني هاشم في الخلافة، ضدًا على بني أمية الذين استولوا على الخلافة في الأندلس بعد إقصائهم من المشرق الإسلامي.

أطروحة التفسير المذهبي التي يذهب أصحابها[٢] إلى القول إن قيام خلافتين على أسس مذهبية مختلفة ومتصارعة إحداهما شيعية والأخرى سنية، كان لا بد أن يسفر عن صدام مسلح بينهما، خاصة أن المذاهب الدينية في ذلك الوقت كانت تقوم مقام التيارات السياسية اليوم.

ومع ما للأطروحتين السابقتين من وجاهة في مقاربة الصراع الفاطمي -الأموي، خاصة البعد المذهبي المتمثل في النزاع التقليدي بين السنة والشيعة، فإنهما تقفان عند قشور أسباب الصراع دون النفاذ إلى لبابه. كما أنهما تعزلان أبعاد الصراع عن مجاله المتوسطي، إذ من الصعب إغفال دور البحر المتوسط الغربي في إذكاء فتيل هذا الصراع، خاصة إذا علمنا أن هذا المجال البحري كان يلعب دور الوساطة في نقل السلع الصحراوية الواردة من الجنوب، وتأمين وصولها إلى الأندلس، ومن ثم تظهر أهمية التفسير الاقتصادي كعامل جوهري في هذا الصراع.

أطروحة التفسير الاقتصادي: وهي التي يرى أصحابها[٣] أن عمق الخلاف بين الفاطميين والأمويين بالأندلس كان يتجسد في سعي كل طرف لفرض سيطرته على شرايين التجارة المتوسطية. فالأندلس كانت – حسب أوصاف الجغرافيين – في حاجة ماسة إلى معادن المغرب الإسلامي مثل الحديد والنحاس، فضلاً عن الذهب المجلوب من غانة، والذي كان يسك في سجلماسة وأغمات وفاس ليسوّق بعد ذلك إلى الأندلس عبر موانئ البحر المتوسط.

وبعد الزحف الفاطمي الذي انتهى بالقضاء على الإمارات الخارجية بالمغرب الإسلامي، وهي الإمارات التي كانت تحكم سيطرتها على المدن الغنية بالمعادن، توحدت مصالح الدولة الأموية بالأندلس مع بقايا القوى المحلية المغربية التي تضررت من الهجمة الفاطمية، خاصة قبائل زناتة وأدارسة فاس. ولما كان الجيش الفاطمي يعتمد أساسًا على قبائل كتامة وهي قبائل صنهاجية، فمن البديهي أن يتحول التناقض في المصالح الاقتصادية إلى نزاع قبلي بين صنهاجة وزناتة، وهو نزاع قبلي في الظاهر، ولكنه اقتصادي في العمق. ينهض حجة على ذلك أن معظم الصراع الفاطمي – الأموي دار إما حول الموانئ المتوسطية مثل نكور وطنجة ومليلية وسبته وبعض الجزر المتوسطية، وإما كان حربا بالوكالة في مدن داخلية عرفت بوفرة معادنها ودورها كوسيط وناقل للبضائع الصحراوية نحو البحر المتوسط كتاهرت وسجلماسة وتلمسان وفاس.

ومهما كان الأمر، فلا يمكن إغفال ما كان للتجارة البعيدة والقريبة من دور في تخطيط سياسة الفاطميين، علما أن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية كان حتى قبل مجيئه للمغرب على اتصال مع جماعات التجار المستقرين في المدن السالفة الذكر. لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن يحل بسجلماسة في زي تاجر لأنه كان قد فطن إلى أهمية التجارة الصحراوية في تزويد الدعوة الفاطمية بالأموال اللازمة لتحقيق أهدافها البعيدة[٤]. ونعتقد أن أحد هذه الأهداف كانت تتمثل في القضاء على الدولة الأموية بالأندلس عن طريق استيلائهم على الموانئ المتوسطية، وإيقاف إمدادها بالمعادن المغربية

والسلع الواردة من غرب إفريقيا. ومما زاد من احتمال حتمية الصراع بين الفاطميين وأمويي الأندلس حول الحوض الغربي للبحر المتوسط امتلاك الخلافتين المتنافستين لقوة بحرية كبيرة. فبناء مدينة المهدية من قبل عبيد الله المهدي، يكشف بوضوح عن الاتجاه المتوسطي للفاطميين، ذلك أن هذه المدينة تقع على ساحل البحر المتوسط، وقد خصص الجزء الذي يفصل سورها عن البحر لإنشاء قاعدة لبناء السفن[٥]، وكان ذلك بدافع حربي لمواجهة الأخطار المهددة للفاطميين، والتحضير لحرب محتملة ضد أمويي الأندلس، كما تم ذلك بدافع اقتصادي في نفس الوقت لتكون المدينة ميناء يربط الساحل المتوسطي بمسالك التجارة الصحراوية.

فضلاً عن ذلك، ورثت الدولة الفاطمية قوة بحرية ترجع إلى عصر الأغالبة، خاصة في إفريقية وصقلية، مما جعلها قوة مهابة الجانب. ولعل القصيدة التي نظمها أحد الشعراء في وصف الأسطول الفاطمي على عهد الخليفة الفاطمي محمد القائم تعكس قوة ذلك الأسطول، ومما قاله فيه:

أعجب بأسطول الإمام محمد
وبحسنه وزمانه المســتغرب
والبحر يجمع بينها فكأنه
ليل بقرب عقرب من عـقرب
وعلى جوانبها أسود خلاقـة
تحتال في عداد السلاح المذهب

وعلى غرار الفاطميين، لم تدخر الخلافة الأموية في الأندلس وسعًا في تقوية أسطولها البحري أيضا تحسبًا لأي مواجهة عسكرية مع الفاطميين، لذلك نشطت حركة صناعة السفن في عهد عبد الرحمن الناصر الذي أنشأ لهذا الغرض عددًا كبيرًا من دور الصناعة في مدن الأندلس مثل طرطوشة وألمرية والجزيرة الخضراء ومالقة ولقنت ودانية وغيرها من المدن الأندلسية الواقعة على الساحل المتوسطي[٦]. والملاحظ أن الخلافة الأندلسية أعدت أسطولها البحري إعدادًا كاملاً، حيث تم شحن الموانئ بالسفن والعتاد الحربي والجنود، وأصدرت الأوامر بفرض رقابة شديدة على مضيق جبل طارق تحسبًا لأي مساعدات عسكرية يرسلها الفاطميون لمعارضي الخلافة الأموية بالأندلس[٧].

انطلاقًا من المعطيات السالفة الذكر، بات واضحًا أن اصطدام الخلافتين الإسلاميتين في الحوض الغربي للبحر المتوسط أمر لا مفر منه، وأنه مسألة وقت لا أكثر، خاصةً أن الفاطميين لم يخفوا منذ بداية تكوين دولتهم بالمغرب نواياهم في تكوين إمبراطورية كبرى تشمل الغرب والمشرق الإسلاميين، لذلك قامت استراتيجيتهم العسكرية على غزو الأندلس غربًا كمرحلة أولى قبل الانتقال لغزو مصر لإحكام السيطرة على البحر المتوسط، قبل الانتقال إلى باقي مناطق المشرق الإسلامي في مرحلة لاحقة[٨]. ومن حصيلة ما تقدم، يتضح أن الصراع الفاطمي – الأموي الأندلسي على الحوض الغربي للبحر المتوسط كان صراعًا حتميًا لا بسبب وجود خلافتين إسلاميتين متجاورتين أحدهما شيعية والأخرى سنية فحسب، بل أيضًا بسبب التنافس للسيطرة ناصية التجارة المتوسطية، سعيًا لضمان قاعدة اقتصادية يمكن من خلالها تضييق الخناق على الخصم وإضعافه اقتصاديًا تمهيدًا للقضاء عليه.

ثانيًا: أشكال الصراع الفاطمي الأموي للهيمنة على الحوض الغربي للبحر المتوسط

اتخذ الصراع الفاطمي – الأموي الأندلسي حول غرب البحر المتوسط صيغا متعددة نذكر منها:

١/٢-التجسس المتبادل بين الفاطميين وأمويي الأندلس:

لتطبيق فكرة غزو الأندلس، بدأ الفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب بالتمهيد لذلك عن طريق الدعاية الشيعية بهدف الترويج لأفكارهم تحضيرا لقيام دولتهم بالأندلس. كما لجأوا إلى نظام التجسس لمعرفة أحوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها. وكان يقوم بتلك المهمة دعاتهم وجواسيسهم الذين كانوا لا يفصحون عن أهدافهم الحقيقية، ويتسترون وراء الأعمال التجارية أو طلب العلم أو السياحة الصوفية. في هذا السياق تكشف المصادر على الأقل عن ثلاثة جواسيس أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس أولهم وأقدمهم زمنيا هو أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بالرياضي (ت. ٢٩٨هـ/ ٩١٠م) الذي يعد أول جاسوس مشرقي يفد على الأندلس[٩]. وكان قد اشتغل كاتبا لعبيد الله الفاطمي (٢٩٧- ٣٣٢هـ/ ٩٠٩ – ٩٣٣م). وعرف بإخلاصه الشديد للشيعة الفاطميين حتى أن أبا عبد الله الشيعي داعية الفاطميين اصطحبه معه عندما توجه نحو سجلماسة لتحرير إمامه المهدي من سجنه في دولة بني مدرار. وإذا لم يكتب لأبي اليسر الرياضي أن ينجح في مهمته التجسسية، فإنه استطاع

على الأقل أن يترك بصماته في ثقافة التشيع بالأندلس بفضل مؤلفاته التي عمت بلاد الأندلس[١٠].

أما ثاني هؤلاء الجواسيس الفاطميين فهو أبو جعفر بن هارون البغدادي الذي عاصر الخليفتين الفاطميين المهدي والقائم، وتولى الكتابة لعبيد الله المهدي بعد وفاة أبي اليسر الرياضي سنة (٢٩٨هـ/ ٩١٠م). وكان هذا الجاسوس قد تردد على الأندلس عدة مرات مختفيا وراء عباءة العلم، فيما كان يسعى إلى خدمة الحكومة الفاطمية[١١]. ويبدو أنه أفلح في مهمته، إذ تمكن من تزويدها بمعلومات على جانب من الأهمية تتعلق برسم المشهد العام لظروف الأندلس وأوضاعها السياسية والدينية والاجتماعية[١٢]. ويكفي دليلاً على تمرسه بالعمالة لصالح الفاطميين أن عبيد الله المهدي أسند إليه منصب خطة البريد التي ظل قائما عليها مع احتفاظه بمنصب الكتابة إلى أن اخترمته المنية.

على أن الرحالة الشيعي ابن حوقل النصيبي (ت. ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) يعد أبرز هؤلاء الجواسيس الفاطميين، خاصة أنه ترك لنا في كتابه "صورة الأرض" أهم وثيقة في مجال التجسس على أمويي الأندلس. والراجح أنه أخفى أهدافه عن طريق التستر وراء التجارة، حتى أن أحد الجغرافيين التبس عليه أمره فلقبه بالتاجر الموصلي[١٣]، كناية على اشتغاله بالتجارة بهدف التمويه على الخصوم الأمويين. وبهذه الصفة الزائفة تمكن من دخول الأندلس. وقد افترض المستشرق دوزي[١٤] أن يكون هذا الرحالة جاسوسا متمرسا، بدليل معرفته الدقيقة لمسالك الأندلس وطرقها.

ومن حسن الحظ أن ابن حوقل أورد ضمن نصوصه الجغرافية نص التقرير الذي كتبه حول الأندلس ورفعه إلى الفاطميين. ويلاحظ أنه اهتم في هذا التقرير بإظهار خيرات الأندلس الزراعية والمعدنية، مع الإشارة إلى ضعف أهلها وعجزهم عن الدفاع عنها ليسيل لعاب الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ويشجعه على غزوها، ومما قاله في هذا الصدد: (وليس لجيوشهم حلاوة في العين، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها وإن شجعت أنفسهم، ومرنوا بالقتال، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة. وما رأيت ولا رأي غيري بها إنسانا قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين، ولا يستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم... ومن أعجب هذه الجزيرة عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذتها)[١٥]. ويستشف من هذه الفقرة أن ابن حوقل قدم صورة مائعة عن الأندلسيين، إذ كان مبالغا في اتهامه لهم بالضعف والجبن، مما جعل أحكامه تشكل نشازا عما أجمع عليه الجغرافيون والرحالة عن صفات أهل الأندلس، ولهذا لم يلتفت الفاطميون إلى مشروعه الذي ظل مجرد كلام عائم يبتعد بمسافة كبيرة عن جادة الصواب.

ورغم استخدام أسلوب التجسس من قبل الفاطميين والدعاية لهم، فإن نتائجه ظلت محتشمة بفضل تجذر المذهب السني في ثقافة المجتمع الأندلسي، وإن كان ذلك لا يمنع من القول إن الفاطميين أفلحوا في ضم بعض الشخصيات الأندلسية إلى صفهم، ومن أمثلة ذلك الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي ثار بجنوب الأندلس ضد الحكم الأموي في أواخر القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) وبداية القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي).

وأفلح الفاطميون أيضًا في كسب بعض شعراء الأندلس إلى جانبهم كالشاعر ابن هانئ الأندلسي (٣٦٢-٩٧٢م) الذي يعتبر أيضا من الشخصيات الأندلسية الهامة التي فرت من الأندلس إلى المغرب حيث التحق ببلاط الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥هـ). وأصبح لسان الدولة الفاطمية بالمغرب وشاعرها المفوه[١٦]، بل داعيتها القوي، حيث أن مدحه لهذا الخليفة لا يندرج في خانة المديح المحض بقدر ما هو نص يفوح بالمذهبية السياسية، وظفه لتدعيم المذهب الشيعي والدعوة للفاطميين. لذلك لا غرابة أن نجد شعره يزخر بالمصطلحات ذات المرجعية الشيعية. فكان يمرر عبره خطابهم المذهبي والسياسي، ويستعمل الحجاج والجدل والتعليل والتدليل والسعي للإقناع المنطقي لا التأثير الوجداني[١٧]. وهذا ما يفسر الترحاب الواسع والحظوة الكبيرة التي لقيها لدى الخليفة الفاطمي.

وفي الاتجاه المقابل، لم تقف الحكومة الأموية في الأندلس مكتوفة الأيدي أمام أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس، بل استخدمت هي الأخرى عيونا وصنائع انبثوا في طول بلاد المغرب وعرضها، خاصة القيروان عاصمة العاصمة الفاطميين. وكان هؤلاء الجواسيس الأمويون يوافون حكومتهم بما يهمها من أخبار الفواطم. ومما ساعدهم في مهمتهم وجود جاليات أندلسية في كل مدينة من مدن إفريقية والمغرب تقريبًا، علمًا بأن هذه الجاليات

كانت تعطي المثال في التمسك بالعقيدة السنية، ومحاربة التيار الشيعي. وكان فقهاء السنة الأندلسيين الذين استوطنوا القيروان ناقمين على الفاطميين، كارهين لبدعهم، لذلك تعاونوا مع الحكومة السنية في الأندلس عن طريق مدهم بأخبار النظام الفاطمي، ولو أن ذلك كلفهم ضريبة التعرض للقمع الذي وصل إلى حد البطش والقتل، وهو ما حدا بهم إلى حمل لواء المعارضة والدعاية ضد الوجود الفاطمي، فأخذوا يحرضون العامة على تأييد ثورة يزيد بن مخلد بن كيداد عدو الفاطميين. وتحتفظ المصادر بأسماء بعض الفقهاء الذين قاوموا الوجود الفاطمي من قبيل الفقيه أبو الحسن الخلاف الذي كان يرى أن قتال الفاطميين أفضل من قتال المشركين، بل أفتى بأن جهادهم يعتبر واجبا دينيا، وهو نفس ما ذهب إليه الفقيه ربيع ابن القطان الذي كفرهم أيضا[١٨]. وثمة نص أكثر مغزى أورده صاحب كتاب "رياض النفوس"، يصور فيه مدى تصدي الفقهاء المالكيين للتيار الشيعي، من خلال تعقيب الفقيه المذكور على دخول الإمام عبيد الله المهدي إفريقية، والذي ذكر فيه أن فقيها مالكيا يدعى أبو يوسف جبلة بن حمود ترك حراسة الرباط بقصر الطوب، وانتقل إلى مدينة القيروان، (فقيل له: أصلحك الله، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط فتركت الرباط والحرس ورجعت إلى ها هنا !. فقال: كنا نحرس عدوًا بيننا وبينه البحر، فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي قد حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم !!)[١٩]. فهذا النص الذي يجعل ميزان التيار الشيعي في مرتبة أدنى من ميزان "دار الحرب"، يعكس مدى المعارضة الدينية والمذهبية التي أحدثها ظهور الفاطميين بالمغرب الإسلامي[٢٠]، ويؤكد حدة المقاومة الداخلية للاكتساح الفاطمي.

٢/٢-الحرب الروحية: تأسيس خلافة مضادة

إذا كان الفقه السني لا يبيح قيام خلافتين إسلاميتين متزامنتين، فإن الصراع السياسي الفاطمي – الأموي الأندلسي، وسعي كل طرف تأكيد تفوقه الروحي والمعنوي على الطرف الآخر، فضلاً عن استشراء الضعف والوهن في كيان الخلافة الإسلامية في المشرق الإسلامي آنذاك، كلها معطيات شجعت الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر على الخروج على الأصل النظري السني للخلافة الإسلامية القائل بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ، معتمدًا في ذلك على اجتهاده وعلى اجتهاد فقهاء السنة الذين أجازوا مبدأ التعدد إذا كانت مصلحة المسلمين تقتضي ذلك، فأقروا بشرعية وجود إمامين يتوليان حكم المسلمين في وقت واحد، شريطة أن يكون بينهما مسافة كبيرة حتى لا يحدث التصادم بينهما[٢١]. ويبدو أن هذا التخريج وجد قبولاً لدى أمويي الأندلس، خاصة أنهم اعتبروا إعلان الخلافة من جانب الفاطميين سابقة خطيرة، تستدعي ردًا مناسبًا لا يمكن أن يوازيه سوى تأسيس خلافة مضادة.

ولا شك أن التنافس على لقب الخلافة احتل مكانًا هامًا في الصراع الفاطمي – الأموي الأندلسي، فعبد الرحمن الناصر الذي كان يرى أنه لا يقل شأنًا عن الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي أو خليفة بغداد الغارق في أوحال الضعف، أعلن نفسه خليفة بعد أن كان أميرًا، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٩م)، وأمر أن يلعن الفواطم جهرا على المنابر. وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعديا على حق من حقوق أئمتهم، فذهبوا إلى إعلان الحرب المفتوحة عليه، واستحلوا دمه، وهو ما يظهر من خلال الكلمات التي تضمنتها رسالة المعز الفاطمي الموجهة لأهل الأندلس والتي قال فيها: (وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، كما تسمى دون من سلف من آبائه، وغمام الأمة بدعواه وانتحاله. ونحن نقول: أننا أهل ذلك دونه ودون من سواه، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه، مع ما بين أسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الإسلام والجاهلية...).

ويستشف من فحوى هذه الرسالة وغيرها من المراسلات التي تبودلت بين الخلافتين أنه الصراع كان على أشده بينهما، وأن التوفيق بين الجانبين كان يحتاج إلى معجزة من الصعب حدوثها في تلك الفترة.

٣/٢-العناية بمسألة التسلح وإبراز القوة البحرية لإرهاب الخصم:

يُلاحظ أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر قد فطن منذ توليه الحكم إلى الحاجة إلى إظهار القوة ليرهب بها العدو، لذلك سعى بكل الوسائل إلى تنمية أسطوله البحري وتنسيق عدته وشحنه بالجند والرجال، لأن السياسة العسكرية المتوسطية كانت تفرض عليه هذا التوجه. لذلك بادر إلى شحن الموانئ الأندلسية بالسفن والعتاد الحربي، وأصدر أوامره إلى الأسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق، ومنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي كان قد اعترف بخلافة الفاطميين، وفي ذلك يقول ابن عذاري[٢٢]: (وفي سنة ٣٠١هـ)، ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميره

من العدوة المغربية، فأحرق جميعها)، وهو نص يعكس مدى تحالف الحكم الفاطمي مع أعداء الدولة الأموية بالأندلس. وفي نفس المنحى، سعى الخليفة الأندلسي الناصر إلى تحصين سواحله وثغوره، خاصة في المنطقة الجنوبية التي كانت عرضة لأي هجوم مفاجئ يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده.

وتذكر المصادر أنه انتقل إلى الضفة الجنوبية من البحر المتوسط الواقعة في الساحل المغربي سنة (٣٠٢هـ/ ٩١٤م)، وهناك أشرف بنفسه أشرف على الأعمال الدفاعية في جزيرة طريف Tarifa، والجزيرة الخضراء Algeciras، حيث تقوم الشواهد الأثرية إلى اليوم دليلاً على التحصينات الأمامية التي شيدها، ومنها القصر الذي بناه للإشراف على الدفاع عن الجزيرة. أما الجزيرة الخضراء، فقد بنى فيها دارًا لصناعة الأساطيل، وأعلى أسوارها، وهو عمل دفاعي لا يخامرنا الشك في أنه قصد به صدّ الفاطميين عن أي هجوم محتمل من المغرب، خاصةً إذا علمنا أن ميناء الجزيرة الخضراء يعد أسهل المراسي وأقربها من بر العدوة المغربية، ويحاذيه مرسى مدينة سبته. ونظرًا لأهمية موقع هذا الثغر وخطورته من الناحية العسكرية، فقد حرص الأمويون على جعله هو وما حوله من ثغور في يد أمير من الأسرة الأموية، إمعانًا في الحفاظ على أسرار الدولة الأندلسية العسكرية، وتجنبًا لأي خيانة محتملة[٢٣].

٤/٢-السيطرة على الموانئ المغربية الأمامية:

لم يكتف عبد الرحمن الناصر بسياسة التسابق نحو التسلح، بل ذهب بعيدا في استراتيجيته المتوسطية، حيث استولى على بعض ثغور الساحل المغربي المواجهة لسواحل بلاده مثل مدينة مليلية سنة (٣١٤هـ/ ٩٢٧م) ومدينتي سبته وطنجة سنة (٣١٩هـ/ ٩٣١م). ويمكن اعتبار استيلائه على مدينة سبته خطوة هامة في استراتيجية سياسته المتوسطية، إذ بعد أن احتلها، صارت هذه الأخيرة (مفتاحًا للغرب والعدوة من الأندلس وبابا إليها كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الأندلس من العدوة)[٢٤]، وهو نص يحمل مغزى عميقا في الدلالة على أهمية امتلاك سبته من الناحية الاستراتيجية. أما مدينة طنجة فقد سارعت إلى بيعة الخليفة الأموي بمجرد استيلائه على سبته، لذلك لم يذهب إلى حد احتلالها عسكريا، لكن بعد أن وصلته أخبار نقض أهلها لطاعته، سير حملة عسكرية بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة نحوها سنة (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)، فاحتل القائد الأندلسي ميناء واسط الواقع بين طنجة وسبته، وأقام مترددا بين الثغور الساحلية إلى أن تمكن من إخضاع طنجة مجددًا سنة (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م)[٢٥].

وفي نفس المنحى العسكري المتوسطي، سعى عبد الرحمن الناصر إلى احتلال موقع هام بالقرب من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط، وهو جزيرة أرشقول التي تسمى اليوم رشجون Rachgoun، وتقع أمام مصب نهر تافنا بالجزائر، وهي جزيرة عالية منيعة تحصن بها أحد أمراء الأدارسة واسمه الحسن بن عيسى بن أبي العيش. فحاصرها الأسطول الأندلسي سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) حصارًا طويلاً بمائة وعشرين قطعة بحرية وسبعة آلاف جندي. وكان هذا التحرك قد تم بطلب من حاكم فاس موسى بن أبي العافية لمناهضة أبي العيش أحد أنصار الفاطميين الذي تحصن بالجزيرة المذكورة. وكان من البديهي أن يستجيب له عبد الرحمن الناصر الذي كان يطمح إلى استئصال شوكة كل الموالين للحكم الفاطمي، فأمر أهل بجاية بتحضير ١٥ سفينة بحرية مجهزة بالرجال والسلاح، أضافها إلى القوة التي أبحرت من الأندلس. وكاد الحصار أن يعطي ثماره حيث صار أهلها على شفا حرف من الهلاك بسبب انقطاع موارد مياه الشرب، لولا أن سقطت أمطار غزيرة ملأت آبارهم الجافة، فاستعادوا حيويتهم واستماتوا في الدفاع عن الجزيرة، مما أجبر الأسطول الأندلسي على الانصراف نحو ميناء ألمرية[٢٦].

وعلى الرغم من فشل عبد الرحمن الناصر في احتلال هذه القاعدة البحرية بالجزائر، إلا أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى في المغرب الأقصى مثل سبته وطنجة ومليلية أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق، وأن يفرض هيمنته على شرايين البحر المتوسط الغربي، وهو ما عبّر عنه المقري بقوله (فاشتد سلطانه وصار المجاز في يده)[٢٧].

٥/٢-استمالة شيوخ القبائل المغربية وتحريضهم على الفاطميين:

في إطار خطته لمحاربة الفاطميين، عول الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر على استمالة رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى، مثل دولة الأدارسة التي كان نفوذها قد انحصر بعد الغزو الفاطمي في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصرة وأصيلا وقلعة حجر النسر بين قبائل غمارة. ونفس القول ينسحب على إمارة نكور التي كانت إمارة عربية سنية مالكية ترعرعت بمنطقة الريف، وكان يحكمها في ذلك الوقت الأمير صالح بن سعيد. وقد لعبت هذه الإمارة دورًا كبيرًا في نشر الإسلام واللغة العربية بين أهل الريف من بربر غمارة

وصنهاجة، كما قاومت في الوقت نفسه تيار الخوارج والشيعة، ولقيت من وراء ذلك عناءً كبيرًا جعلها تبادر إلى التحالف مع أمويي الأندلس.

ولم يقتصر عبد الرحمن الناصر على التحالف مع هذه الدويلات المغربية الشمالية، بل تخطاها إلى ما وراءها من قبائل البربر، خاصة قبيلة زناتة التي عمل على إمدادها بالمال والسلاح وتحريضها على قتال صنهاجة حليفة الفاطميين. وكان يستعمل في سبيل اكتساب القبائل المغربية إلى جانبه كل الوسائل الدبلوماسية حيث كان يبعث إليهم بسفرائه محملين بالهدايا والألطاف والأموال[٢٨]، من بينهم محمد بن عبد الله بن أبي عيسى الذي بعثه إلى زعماء القبائل البربرية سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٩م)[٢٩]. وكان الناصر يملك من البراعة الدبلوماسية ما جعله يكسب ودّ القبائل المغربية التي شكلت سدًا منيعًا ضد التوغل الفاطمي في المغرب كمعبر نحو الأندلس. ولم يأل جهدًا في إقناع زعماء القبائل البربرية بالخطر الذي يشكله الفاطميون عليهم وعلى المذهب السني بالمغرب، لذلك لم تنقطع مكاتباته ومراسلاته إلى مؤيدي الفاطميين أنفسهم في محاولة لاستمالتهم. وتنبث في كتاب "المقتبس" لابن حيان[٣٠] العديد من الرسائل التي تصب في هذا الاتجاه. ونسوق في هذا الصدد نموذج موسى بن أبي العافية الذي أفلح الخليفة الأموي في استمالته بعد أن كان مواليًا للحكومة الفاطمية[٣١]. كما كان يقدم المساعدات العسكرية لكل الموالين له، حتى أن حربه ضد الفاطميين أصبحت حربًا بالوكالة بما في الكلمة من معنى.

٦/٢-تأييد الحركات المعادية للطرفين المتصارعين:

عولت استراتيجية الخلافة الأندلسية في صراعها مع الخلافة الفاطمية على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية لها، نذكر منها ثورة الخوارج الخطيرة التي قامت في تونس والجزائر بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي "صاحب الحمار" ضد الدولة الفاطمية. وقد استمرت هذه الثورة طيلة فترة حكم الخليفة محمد القائم، وجزءًا من عهد ولده إسماعيل المنصور[٣٢]. ولم تتردد حكومة قرطبة في تأييدها وإمدادها بالمساعدات المالية والعسكرية. وفي مقابل ذلك اعترف أبو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية، ودعا للخليفة عبد الرحمن الناصر في كل المجال الجغرافي الذي اقتطعه من الفاطميين وخضع لسيادته، وفي هذا الصدد يروي ابن عذاري[٣٣] أنه في سنة (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) أرسل أبو يزيد مخلد بن كيداد إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر وفدا يخبره باستيلائه على القيروان ورقادة والمناطق القريبة منها، وانتصاره على جيوش محمد القائم، مظهرا لحاكم قرطبة طاعته واعترافه بولايته. وفي السنة التالية (٣٣٤هـ/ ٩٤٥)، أرسل له أبو يزيد سفارة ثانية مكونة من علماء القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبي العرب التميمي. وفي السنة التي تلتها (٣٣٥هـ/ ٩٤٦) أرسل سفارة ثالثة برئاسة ولده أيوب، فأكرمه الناصر وأنزله في قصر الرصافة بقرطبة، وأمده بمبلغ مالي كبير لتعزيز مركز والده.

ويتضح من خلال تتبع تفاصيل ثورة أبي يزيد المذكور أن الخليفة عبد الرحمن الناصر تدخل إلى جانبه في الحرب تدخلا مباشرا بسبب وجود عدو مشترك بينهما وهو العدو الفاطمي. ولم يقف عند حد التأييد المعنوي فحسب، بل قدم له كل ما تتطلبه الحرب من عتاد ومال[٣٤]. ولا يستبعد أن يكون قد زوده بخبراء عسكريين وبعض القادة المتمرسين بالحرب لكسر شوكة الفاطميين.

وعلى الرغم من أن هذه الثورة قد شكلت خطرًا كبيرًا على الدولة الفاطمية، إلا أنها انتهت أخيرًا بالفشل، وبقتل صاحبها سنة (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م). ويعزى الفضل في ذلك إلى انضمام قبيلة صنهاجة إلى جانب الدولة الفاطمية لأن أبا يزيد الخارجي كان زناتيا وتؤيده قبيلة زناتة المنافسة لها. ومع ذلك فقد كانت ورقة وظفها النظام الأموي في الأندلس ضد خصومه الفاطميين، واستطاع من خلالها أن يركز نفوذه في إفريقية حيث تقلصت سلطة الفاطميين وانحصرت في المهدية، بل كاد أن يعصف بالوجود الفاطمي نهائيا لولا الفشل الذي منيت به هذه الثورة[٣٥].

مقابل ذلك قام الفاطميون بتشجيع الخارجين عن الدولة الأموية بالأندلس وفي مقدمتهم الثائر عمر بن حفصون الذي أمده الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي بالذخيرة والأسلحة، كما أرسل له داعيتين أقاما عنده، وأخذا يحرضانه على التمسك بطاعة الفاطميين وإقامة دعوتهم. غير أن الفحص الدقيق لهذا التحالف يبرز أن ابن حفصون لم يكن مخلصا للدعوة الفاطمية، وإنما اتخذها ورقة يستعملها ضد حكومة قرطبة، بدليل أنه في أواخر أيامه استغنى عن الداعيتين، وأعادهما بهدية إلى الخليفة الفاطمي[٣٦].

ومن الثوار الذين كسبتهم الحكومة الفاطمية إلى جانبها أيضا القائد الأندلسي علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الأندلسي الذي فرّ من الأندلس نحو المغرب، واتصل بعبيد الله المهدي ثم بابنه القائم. وقد عهد إليه هذا الأخير بناء مدينة المسيلة وهي

التي سميت بعد ذلك بالمحمدية، ثم عقد له على ولاية الزاب في جنوب المغرب الأوسط[٣٧]. والراجح أن بناء مدينة المسيلة جاء استجابة لرغبة الخليفة الفاطمي المذكور في مراقبة تحركات القبائل البربرية الخارجة على السلطة الفاطمية وموالاتها لأمويي الأندلس. فعندما اندلعت ثورة أبي يزيد الخارجي في جبال الأوراس، كتب الخليفة القائم إلى علي بن حمدون يطلب منه المدد بقبائل البربر في الزاب، وقد استطاع هذا القائد الأندلسي أن يتصدى لجيوش يزيد بن مخلد بن كيداد – العدو اللدود للفاطميين – إلى انتهى الأمر بمصرعه سنة (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) على يد ابن هذا الثائر أيوب بن يزيد بن مخلد.[٣٨]

٧/٢-تشكيل النظام الأموي-الأندلسي جبهة تحالف مع ملوك الدول الأوروبية والإسلامية المعادين للفاطميين:

في سبيل القضاء على الخلافة الفاطمية، لم يتردد الخليفة عبد الرحمن الناصر في تشكيل جبهة تحالف مع ملوك الدول المعادية للفاطميين ولو نظريا، ولا غرو فقد عقد حلفا مع ملك إيطاليا هوج دي بروفانس Hugue de Provence الذي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم ميناء جنوه الايطالي. كما تحالف مع قسطنطين السابع إمبراطور الدولة البيزنطية الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من حوزة الفاطميين. وفي هذا الصدد تشيد المصادر الأندلسية بالاحتفالات الفخمة والحفاوة البالغة التي استقبل بها الخليفة عبد الرحمن الناصر سفراء الروم في سنتي (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، و(٣٣٨هـ/ ٩٥٠م) الذين تقاطروا على بلاط قرطبة خاطبين ودها. وقد استغلت المصادر الإسماعيلية هذا الحدث فأولته تأويلاً مبيتًا حين صورته على أنه اتفاق حربي مشترك بين الأمويين والبيزنطيين على حصار الفاطميين من المغرب والمشرق، وفي ذلك يقول القاضي النعمان: وكتب (يقصد الخليفة الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة، وأهدى إليه هدايا وأرسل إليه رسلا من قبله، فأجابه إلى ذلك، وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية، ومراكب بني أمية من الأندلس).

والواقع أنه من الصعب تأكيد مثل هذا التواطؤ الحربي المشترك، خاصة أن المصادر الأندلسية لم تشرح لنا تفاصيل تلك المعاهدات التي أبرمت بين الخليفة الناصر والبيزنطيين. وقد أثبتنا في دراسة سابقة أن مثل هذه السفارات والاتصالات بين أقطاب الأمم الإفرنجية وبلاط قرطبة كان يحدوها أمل إقامة معاهدات سلمية تشكل جذور حوار حضاري كما تكشف ذلك الهدايا المتبادلة بين قسطنطين السابع إمبراطور بزنطة وعبد الرحمن الناصر، والتي كانت عبارة عن كتب علمية متبادلة وإرسال مترجمين لترجمتها[٣٩]. وحتى إذا افترضنا وجود تحالفات سياسية، فأغلب الظن أنها كانت على غرار التحالفات السابقة التي أبرمت بين الأمير عبد الرحمن الثاني والإمبراطور "تيوفيل" سنة (٢٢٥هـ/ ٨٤٠هـ)، وهي تقوم على ترك الحرية للبيزنطيين في قتال أعداء الدولة الأموية، لكن دون الارتباط معهم بعمل حربي مشترك يصل إلى حد التنسيق العسكري[٤٠].

وفي نفس الاتجاه، حرص الخليفة عبد الرحمن الناصر على توطيد علاقاته مع الدولة الإخشيدية بمصر، فأرسل إلى أميرها مبلغًا ماليًا يقدر بعشرة آلاف دينار لتوزيعه على علماء المذهب المالكي لمحاربة الدعاية الشيعية هناك[٤١]. وجدير بالذكر أن زعيم المدرسة المالكية في مصر آنذاك كان عالماً أندلسيًا اسمه إسحاق محمد بن القاسم ويعرف بابن القرطبي، وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين ويسبهم، ويدعو على نفسه بالموت قبل وصولهم لبلاد الكنانة وكأنه تنبأ بذلك. وقد استجاب الله لدعائه، حيث توفي سنة (٣٠٠هـ/٩٥٦م)، أي قبل الغزو الفاطمي لمصر بنحو ثلاث سنوات.[٤٢]

٨/٢-النهاية المحتومة: الاصطدام المسلح بين الفاطميين وأمويي الأندلس في الحوض الغربي للبحر المتوسط

لم تقف حدود النزاع بين الفاطميين والأمويين على التسابق في التسلح، واحتلال المواقع المتقدمة في السواحل المتوسطية، والحرب بالوكالة عن طريق إثارة الفتن بين قبائل البربر، وتدبير المؤامرات من وراء الستار، بل تطور الأمر إلى اشتباك مسلح بينهما. وقد زودنا ابن الأثير[٤٣] بوصف لبداية هذا الاشتباك بقوله: (وفي سنة ٣٤٤هـ (٩٥٥م) أنشأ عبد الرحمن الناصر الأموي، صاحب الأندلس، مركبا كبيرا لم يعمل مثله، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق، فلقي في البحر مركبا فيه رسول من صقلية إلى المعز لين الله الفاطمي، فقطع عليه أهل المركب الأندلسي، وأخذوا ما فيه، وأخذوا الكتب إلى المعز، وبلغ ذلك المعز، فعمّر أسطولا واستعمل عليه الحسن بن علي صاحب صقلية، وسيره إلى الأندلس، فوصلوا إلى ألمرية، فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع ما فيه من المراكب، وأخذوا ذلك المركب، وكان قد عاد من الإسكندرية، وفيه أمتعة لعبد الرحمن وجوار ومغنيات، وصعد من

في الأسطول إلى البر فقتلوا ونهبوا، ورجعوا سالمين إلى المهدية).

يشي هذا النص أن السبب المباشر الذي أدى إلى وقوع اشتباكات مسلحة بين الأسطولين الفاطمي والأموي هو تلك الرسائل التي كان قد بعث بها والي الفاطميين بصقلية إلى الخليفة الفاطمي المعز بالمهدية. وللأسف فإننا لا نعرف شيئًا عن فحوى هذه الرسائل، مما سمح للدارسين بتقديم فرضيات مختلفة، لعل أهمها فرضية المستشرق الهولندي "دوزي" القائلة بأن مضمون هذه الرسائل قد يكون متعلقا بمشروع هجوم فاطمي على الأندلس، وأن قائد السفينة الأندلسية كان على علم بخطورتها، ولهذا لم يتردد في الاستيلاء عليها.

وأيًا ما كان الأمر، فقد تميز رد الفعل الأندلسي بالسرعة، حيث وجه عبد الرحمن الناصر أسطوله البحري لشن سلسلة من الغارات على بعض المدن الساحلية الفاطمية مثل سوسة وطبرقة ومرسي الخرز، وكان هذا الميناء الأخير قاعدة بحرية لتشييد المراكب الحربية الفاطمية، فأضرم النار في بعض نواحيها. ويبدو أن هذه الحملة البحرية لم توفق في هجومها على سواحل افريقية فعادت من حيث أتت[٤٤]، وهو ما يفسر توجيه الخليفة الأندلسي أوامره إلى مملوكه غالب بن عبد الرحمن الناصر للإبحار في أسطول كبير في السنة الموالية (٣٤٥ هـ/ ٩٥٦م) نحو شواطئ إفريقية. وكان هذا الأسطول مكونا من سبعين سفينة أغارت على مدينة الخرز وأضرمت النار فيها، ثم اتجهت نحو مدينة طبرقة غرب مدينة بنزرت التونسية، ثم جازت على سوسة وخربت المدينتين الفاطميتين[٤٥]. وقد تواصلت هذه الغارات والاشتباكات البحرية في سواحل المغربين الأوسط والأدنى، كما استمر الأمويون في إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق قواعدهم العسكرية، وجالياتهم الأندلسية الممتدة على الساحل المغربي.

وعلى الرغم من رد الفعل العنيف الذي قام به الفاطميون ضد الغارات البحرية الأندلسية والتي تمخض عنها إرسال حملة عسكرية بقيادة جوهر الصقلي سنة (٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) لإعادة إخضاع المغرب للخلافة الفاطمية وتأديب أنصار الخلافة الأموية ، فإن هذا الأخير لم ينجح في احتلال القواعد والجزر البحرية المتوسطية التي ظلت في قبضة الخلافة الأموية بالأندلس[٤٦]، خاصة بعد أن فشل جوهر الصقلي في اقتحام مدينة سبته، إذ تصدى له الأندلسيون بزعامة بدر مولى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وذلك سنة (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م)، وأجبروه على العودة دون نصر يذكر[٤٧].

ويبدو أن الفاطميين أيقنوا بفشل مشروعهم في غزو الأندلس بفضل مناعة الدولة الأموية، وقوة أسطولها البحري، وتقدم مراكزها الساحلية الهجومية، بل تأكدوا أن بقاءهم بالمغرب في حد ذاته أمر محفوف بالمخاطر أمام انحياز معظم الإمارات البربرية إلى حكومة قرطبة، لذلك بدأوا يفكرون في التخلي عن مشروع الإمبراطورية الفاطمية في الحوض الغربي المتوسطي، والاتجاه نحو الحوض الشرقي انطلاقًا من مصر، حيث سيفتحون صفحة جديدة وإيجابية في سياستهم المتوسطية، وسيحققون نجاحًا ملموسًا في مشروع الإمبراطورية الفاطمية في المشرق الإسلامي.

خَاتِمَةٌ

والحاصل من هذه الدراسة، أن المجال المتوسطي الغربي سجل لأول مرة تصادم خلافتين إسلاميتين متزامنتين وهما في عزّ قوتهما العسكرية والمذهبية. وبعد أن بيّنا مختلف التفسيرات التي تبنتها بعض الدراسات، ومنها التفسير الاثني والتفسير المذهبي والتفسير الاقتصادي، رجحنا التفسير الاقتصادي نظرًا للبعد الذي أخذه حجم الصراع بين الخلافتين من أجل السيطرة على الموانئ المتوسطية، وبالتالي الهيمنة على شرايين الملاحة المتوسطية. كما أبرزت الدراسة الأساليب التي استعملتها القوتان المتنافستان لكسب المواقع الحساسة في البحر المتوسط من قبيل عمليات التجسس، وتأييد الحركات المعارضة في الداخل لإضعاف النظام الخصم وإثارة البلبلة، والحرب بالوكالة، وتجييش الأساطيل والقوة البحرية لكسب المعركة. وقد تبين أن المشروع الفاطمي لغزو الأندلس قد باء بالفشل بفضل التفوق العسكري الأندلسي الأموي، وإحباطه محاولة الفاطميين كسب تأييد الزعامات البربرية.

الهَوامِشُ:

(١) حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الدولة الفاطمية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨، ص ٨٦.

(٢) أحمد مختار العبادي، **في التاريخ العباسي والفاطمي**، دار النهضة العربية، بيروت، (دون تاريخ)، ص ٢٣٩.

(٣) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٤ (ط١)، ج٢، ص ٧٢.

(٤) نفسه، ص٧٣، محمد بن عميرة، **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، طبعة الجزائر ١٩٨٤، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص١٨٥.

-Brignon et autres, Histoire du Maroc, Hatier 1967 Paris 6, Librairie nationale, Casablanca p 75.

(٥) المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٧، ص ٩٣.

(٦) عبد العزيز سالم وأحمد العبادي، **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩، ص ١٧٥.

(٧)أحمد مختار العبادي، **في التاريخ العباسي والفاطمي**...م.س، ص٢٣٩.

(٨) أحمد مختار العبادي، **سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس**، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٧٥، ص٢٠٥.

(٩) انظر عنه: المقري، **نفح الطيب**، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩، ج٢، ص١٣١.

(١٠) عبد العزيز فيلالي، **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٣ (ط٢)، ص ١٢٩.

(١١) محمود علي مكي، **التشيع في الأندلس: منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية**، صحيفة المعد المصري للدراسات الإسلامية، فصلة من المجلد ٢، عدد ١-٢، مدريد ١٩٥٤، ص ٢١.

(١٢) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٢٩.

(١٣) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت – دون تاريخ -، ج١، ص ٢٦٢.

(14) Dozy, Histoire des musulmans d'Espagne, Leiden 1932, T2 , P 125

(١٥) **صورة الأرض**، بيروت ١٩٦٢، ص ١٠٤ – ١٠٥.

(١٦) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٣٣.

(١٧) أحمد هيكل، **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**، دار المعارف ١٩٧٩، - ط ٧ – ص ٢٤٢.

(١٨) **معالم الإيمان**، تونس ١٩٠٢، ج٣، ص ٣٤-٣٥.

(١٩) **رياض النفوس**، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨١، ج٢، ص ٣٧.

(٢٠) احمد مختار العبادي م.س ص ٢٣٨ -عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٣٥.

(٢١) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٣٨.

(٢٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ليفي بروفنسال و س. كولان، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠، ج٢، ص ١٥٦.

(٢٣) أحمد مختار العبادي، م.س، ص٢٤٠.

(٢٤) ابن عذاري، م.س، ج٢، ص ٢٠٤.

(٢٥) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٥٤ – ١٥٥.

(٢٦) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، تحقيق دي سيلان، الجزائر ١٩١١، ص ٧٨ - عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، م.س، ص ١٧٦، ١٨٨ – عبد العزيز فيلالي، م.س، ١٥٤-١٥٥.

(٢٧) **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، تحقيق مصطفى السقى وآخرون، القاهرة ١٩٣٩، ج٢، ص٢٥٧.

(٢٨) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص١٤٠.

(29) Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, Paris 1950, T1;P 96.

(٣٠) المقصود هو القطعة الخاصة بعهد الخليفة عبد الرحمن الناصر التي نشرها بيدرو شالميطا وآخرون، طبعة مدريد ١٩٨٠.

(٣١) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، الرباط ١٩٧٣، ص ٨٤-٨٥.

(٣٢) انظر تفاصيل هذه الثورة عند: محمد بن عميرة، **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤، ص ١٩٧- ٢١٤. وعن تأييد عبد الرحمن الناصر لها، راجع: عبد العزيز فيلالي، م.س، ص١٧٠-١٧١ وأحمد مختار العبادي، م.س، ص٢٤١-٢٤٢.

(٣٣) البيان المغرب، ج٢، ص ٢١٢ – ٢١٣.

(٣٤) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٧١.

(٣٥) نفسه، ص، ١٧٢، ١٣٦.

(٣٦) أحمد مختار العبادي، **في التاريخ العباسي والفاطمي**...م.س، ص ٢٣٦.

(٣٧) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٣٢ – ١٣٣.

(٣٨) نفسه، ص ١٣٢.

(٣٩) عالجنا هذه الإشكالية بتفصيل في بحث شاركنا به في مؤتمر نظمته جامعة قرطبة في موضوع "قرطبة عاصمة الفكر في الأندلس: مدينة الحوار الثقافي" ٢٧-٢٩ أكتوبر ٢٠٠٨ تحت عنوان "**قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر: مدينة التعايش وبناء العلاقات الودية بين العالمين الإسلامي والمسيحي**. (لم ينشر بعد).

(٤٠) أحمد مختار العبادي، م.س، ص ٢٤٣ – عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٨٠.

(٤١) نفسه، ص ١٨٠.

(٤٢) ابن فرحون، **الديباج المذهب**، ص ٢٤٨ -أحمد مختار العبادي، م.س، ص 243-242.

(٤٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨، مجلد ٦، ص ٣٤٩.

(٤٤) نفس المصدر والصفحة.

(٤٥) ابن عذاري، م.س، ج٢، ص ٢٢١.

(٤٦) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٧٧.

(٤٧) ابن عذاري، م.س، ج٢، ص ٢٢٢- ٢٢٣.